جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

شعر العاذلة حتى نهاية العصر الأموي
(دراسة سوسيولوجيَّة لغويَّة)

إعداد

أ. آلاء عبدالرحمن التركي
أ. د. عبداللطيف السلمي
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية اللغات والترجمة – جامعة جدة – المملكة العربية السعودية

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الرابع .. نوفمبر)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

شعر العاذلة حتى نهاية العصر الأموي (دراسة سوسيولوجيَّة لغويَّة)

آلاء عبدالرحمن التركي

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغات والترجمة، جامعة جدة، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: alturkialaa1@gmail.com

المشرف: أ. د. عبداللطيف السلمي

الملخص:

تطوَّرت الدراسات اللسانيَّة وتداخلت مع غيرها من العلوم، فظهرت لدينا كثير من الدراسات والنظريَّات اللُّغويَّة ذات الأبعاد المتنوِّعة، والاتجاهات المُختلفة، ومن بين تلك النظريَّات اللُّغويَّة، النظريَّة السوسيولوجيَّة اللُّغويَّة بمناهجها وأدواتها في تحليل النصوص، والكشف عن العلاقة التبادليَّة بين اللُّغة والمجتمع، فارتأت الدراسة أن تكون في لُغة الشعر القائم على حوارات الشاعر مع عاذلته؛ فاللُّغة إن كانت تمثِّل مفتاح الوعي بالعالم، وذاكرته المؤثرة في سياق الوجود الاجتماعي، فالشعر أداة من أدوات ذلك الوعي الذي يمثِّل رؤية الشاعر لهذا العالم، وقد اعتمدت الدراسة على النظريَّة السوسيولوجيَّة اللُّغويَّة، واقتصرت حدود الدراسة على شعر العاذلة من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل المكونات الاتصاليَّة في شعر العاذلة، والكشف عن أطراف العلاقة الاتصاليَّة، وخلُصت الدراسة إلى استجابة شعر العاذلة لمعطيات النظريَّة السوسيولوجيَّة للُغة، مما يؤكد على العلاقة الوطيدة بين اللُّغة والمجتمع، وأن الوظيفة التواصليَّة هي الإطار العام الذي تتحرك ضمنه بقية وظائف اللُّغة، وتعددت أطراف العلاقة الاتصاليَّة في شعر العاذلة ولم تقتصر على الشاعر والعاذلة وحدهما.

الكلمات المفتاحيَّة: شعر العاذلة، السوسيولوجيَّة اللُّغويَّة، الوظائف اللُّغويَّة، المكونات الاتصاليَّة، العلاقة الاتصاليَّة.

Alathilah's Poetry Until the End of the Umayyad Period (A Sociolinguistic Study)

Alaa Abdulrahman Alturki
College of Languages and Translation, Jeddah University, Saudi Arabia.
Email: alaaturki95@gmail.com
Supervisor: Prof. Abdullateef Alsolami

Abstract:
Linguistic studies have evolved and intertwined with other sciences, leading to various linguistic theories with diverse dimensions and different trends. Among these theories is the sociolinguistic theory, which employs methods and tools to analyze texts and reveal the reciprocal relationship between language and society. This study focuses on the language of poetry, specifically the dialogues between the poet and alathilah; if language represents the key to awareness of the world and its memory influencing social existence, then poetry serves as a tool for that awareness, reflecting the poet's vision of the world. The study relies on sociolinguistic theory, limited to the alathilah's poetry from the pre-Islamic era to the end of the Umayyad period. It aims to analyze the communicative components in alathilah's poetry and reveal the parties involved in the communicative relationship. The study concludes that alathilah's poetry responds to the sociolinguistic theory of language, emphasizing the close relationship between language and society, with the communicative function as the overarching framework within which other language functions operate. The communicative relationship in alathilah's poetry involves multiple parties beyond just the poet and alathilah.

Keywords: Alathilah's Poetry, Sociolinguistics, Language functions, Communicative components, Communicative relationship.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، وبعد..

فإنَّ علم اللُّغة الاجتماعي (Sociolinguistics) فرع من فروع علم اللُّغة التطبيقي مهمته دراسة التنوعات والاختلافات في لُغة واحدة أو أكثر، كما أنَّه يقوم بدراسة اللُّغة من حيث علاقتها بالمجتمع تأثيرًا وتأثرًا؛ محاولًا الكشف عن القوانين والمعايير الاجتماعيَّة التي تنظم سلوك اللُّغة وسلوك الأفراد نحو اللُّغة في المجتمع، وطرائق الاستعمال اللُّغوي التي يكتسبها الإنسان من المجتمع؛ إذ يربط الملفوظ اللُّغوي بسياقه التواصلي والاجتماعي والطبقي؛ محاولًا الإجابة عن سؤال (من يتحدَّث؟، وماذا؟، وأين؟، ومتى؟، وكيف؟، ولماذا؟)

ومن أبرز علماء الغرب الذين طوَّروا هذا العلم وليام لابوف (William Labov) وفيشمان (fishman) ، وشارل فارغسون (C. Fergusson) وغيرهم.

ومع تطور الدراسات اللسانيَّة وتداخلها مع غيرها من العلوم، ظهرت لدينا كثير من الدراسات والنظريَّات اللُّغويَّة ذات الأبعاد المتنوِّعة، والاتجاهات المُختلفة، ومن بين تلك النظريات النظريَّة السوسيولوجيَّة اللُّغويَّة بمناهجها وأدواتها في تحليل النصوص، والكشف عن العلاقة التبادليَّة بين اللُّغة والمجتمع، فارتأى البحث أن يكون في لُغة الشعر القائم على حوارات الشاعر مع عاذلته؛ فاللُّغة إن كانت تمثِّل مفتاح الوعي بالعالم، وذاكرته المؤثرة في سياق الوجود الاجتماعي فالشعر أداة من أدوات ذلك الوعي الذي يمثِّل رؤية الشاعر لهذا العالم.

وقد احتلَّ شعر العاذلة مساحة واسعة من شعر القدماء والمحدثين، وشكَّل أداة فنيَّة وظَّفها الشاعر ضمن سياقاته لطرح رؤيته بما يجعل لأخيلته بعدًا اجتماعيًّا يشده إلى الواقع أحيانًا، ولما لحوارها من خصوصيَّة تُظهر اللُّغة

بمستواها التواصلي الذي يعتمد على الأسلوب الحواري والحجاجي ممَّا منح الشاعر أفقًا فكريًّا أدائيًّا لتبرير سلوكه وعرض معاناته وتأكيد فضائله التي من أجلها واجه التحديات وتصدى لغوائل الدهر وجعل من عذله فضاء لتفريغ طاقاته التعبيريَّة، والبوح بمكنوناته.

وقد ارتبط العذل واللَّوم عند الشُّعراء القدامى بالنِّساء فالعاذلة قد تكون زوجة، أو ابنة، أو أما، أو جارة، أو امرأة مجهولة؛ لأن المرأة أقرب إلى اللوم من الرجل، فكانت تلومه على شربه للخمر، وتبذيره للمال، ومخاطرته بحياته، وكبره وشيخوخته، وغيرها من الأمور الاجتماعيَّة التي يلجأ فيها الشاعر إلى استدعاء صوت آخر وهو صوت العاذلة، وكأنَّها صوت العقل الواعي، أو هاجس نفس الشاعر الحذرة التي تجادل عقله وتصرفاته في مقابل صوته المبرر والمدافع عن موقفه.

ومن هذا المنظور تسعى هذه المقاربة إلى البحث عن سوسيولوجيَّة اللُّغة في شعر العاذلة من ناحية المكونات الاتصاليَّة، لما تحظى به الأبيات من حوارات مكثفة يديرها الشاعر مع المرأة العاذلة، فمفهوم الحوار أو التفاعل اللَّفظي كما يرى باختين مفهوم مركزيّ يحدد الخلفيَّة الاجتماعيَّة لكل خطاب.

المبحث الأول: سوسيولوجيَّة اللُّغة في شعر العاذلة

العذل لُغة: "الْمَلَامَةُ، عَذَلَهُ، يَعْذِلُهُ، عَذْلاً، كالتَّعْذِيلِ، شُدِّدَ لِلْكَثْرَةِ، والاِسْمُ: الْعَذَلُ، مُحَرَّكَةً، واعْتَذَلَ الرَّجُلُ، وَتَعَذَّلَ: أَي قَبِلَ مِنْهُ الْمَلَامَةَ، وأَعْتَبَ، وقالَ ابنُ الأَعْرابِيِّ: العَذْلُ: الإِحْراقُ، فَكَأَنَّ اللَّائِمَ يُحْرِقُ بِعَذْلِهِ قَلْبَ المَعْذُولِ، فَهُوَ عُذَلَةٌ، كَهُمَزَةٍ، يَعْذِلُ النَّاسَ كَثِيراً، مِثْلُ ضُحَكَةٍ، وهُزَأَةٍ، ومنهُ المَثَلُ: أَنا عُذَلَةٌ، وأَخِي خُذَلَةٌ، وكِلَانا لَيْسَ بابْنِ أَمَةٍ، يقولُ: أَنا أَعْذِلُ أَخِي، وَهُوَ يَخْذُلُنِي، ورَجُلٌ عَذَّالٌ، مِثْلُ شَدَّادٍ: كَثِيرُهُ، وكذلكَ: امْرَأَةٌ عَذَّالَةٌ: كَثِيرَةُ العَذْلِ." (١)، وفي المحيط: "عَذَلْتُ أَعْذِلُ وأَعْذُلُ عَذْلاً فاعْتَذَلَ: لُمْتَه فأَعْتَبَ. والعَذِيْلَةُ: اللَّوْم. واعْتَذَلَ الحَرُّ: اشْتَدَّ." (٢)

فالعذل يعني اللَّومَ والعِتاب، والعَاذِلةُ هي التي تلوم الشخص الآخر ، وغالبًا ما يكون هذا اللوم موجهًا إلى المحبوب، وقد ارتبطت في الشعر العربي القديم بالمرأة؛ لما يحمله هذا الفعل من عاطفة، وهي ما تمتاز بها المرأة، وقد تكون المرأة العاذلة زوجة الشاعر أو ابنته، وقد يرتبط العذل أيضًا بصديق يلوم صديقه على ما بدر منه، ومهما يكن فإن " العاذلة أداة فنيَّة تكشف عن حس الشاعر الداخلي وميله إلى الاعتدال والبعد عن التطرف". (٣)

وقد ظهر العذل في العصر الجاهلي، ونتج عن "طبيعة البعد الذاتي والاجتماعي الذي عبَّر الشاعر القديم عنه بأشكال ودلالات متعددة، إذ يتحول

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الزبيدي، تحقيق: عبدالفتاح الحلو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ج٢٩، (١٩٩٧)، ص: ٤٥٧. مادة "ع ذ ل"

(٢) المحيط في اللُّغة، الصاحب بن عباد، تحقيق: محمد آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ج١، (١٩٩٤)، ص: ٤٦٥.

(٣) العاذلة في الشعر الجاهلي، إبراهيم السنجلاوي، المجلة العربيَّة للعلوم الإنسانيَّة، الكويت، مج٧، ع٢٨، (١٩٨٧)، ص: ٣٦.

الشعر بلغته ورؤيته إلى رجاع رمزي لتلك العلاقات الاجتماعيَّة الواسعة" [١]، وكان يعبِّر به الشاعر غالبًا عن الألم العاطفي والفراق والخذلان، بينما في عصر صدر الإسلام تم دمج القيم الدينيَّة والأخلاقيَّة في الشعر، وفي العصر الأموي شهدنا تطورًا في الأساليب الشعريَّة وتنوعًا في التعبير عن الحب واللوم؛ مما يعكس التغيرات الاجتماعيَّة والثقافيَّة التي مرت بها المجتمعات وأثرت على الشعراء وفي طرق تعبيرهم.

ويعبِّر الشاعر عن صراعاته الداخليَّة وتحدياته الشخصيَّة عن طريق العذل، فيدور حوارٌ بينه وبين عاذلته في شعره، مما يُظهر الأبعاد النفسيَّة والمعنويَّة لشخصيته، وقد لا يكون العذل موجهًا إلى المحبوبة أو الشاعر فقط؛ بل إلى المجتمع الذي يعيش فيه أيضًا، وما يتعرض له من انتقادات وضغوطات من قبل هذا المجتمع.

وكثيرًا ما نجد الشاعر يتوقف عند اعتراض مَن يعذله ويلومُه على أمر قام به، أو تصرف اعتاد أن يكرره، غير ملتفت إلى ما يؤول إليه أمره فيما يستقبل من حياته، وأكثر ما يكون العذل واللوم في أمور هي مما يعتز به العربي عامة من مكارم الأخلاق، والخصال الحميدة، والقيم النبيلة في عرف مجتمعه، والشاعر لا يُعذل حقيقة على فعلها، بل على الإفراط والمُبالغة فيها، ولما كان الأمر كذلك فقد التمس الشاعر لنفسه مخرجًا للتعبير عما يعتلج في صدره، وعن منزلة تلك القيم في نفسه عن طريق خلق ما يشبه الحوار بينه وبين مَن يعذله على أمر ما، ثم يسترسل في الحديث عنه، وسردِ موقفِه وقناعتِه، متخذًا من هذا العذل محرضًا له للتعبير عن ذلك وتسويغ فعله. [٢]

---

(١) ظاهرة العذل في الشعر الجاهلي، رعد أحمد علي، مجلة كلية التربيَّة الأساسيَّة، العراق، ع٧٥، (٢٠١٢)، ص: ١٣٢.

(٢) ينظر: ظاهرة العذل في شعر حاتم الطائي، علي أبو زيد، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيَّة، دمشق، مج١٨، ع١، (٢٠٠٢)، ص: ٨٤.

وتـؤثر الخلفيَّـة الاجتماعيَّـة للشـاعر علـى لغتـه الشـعريَّة، وطريقـة تناولـه لموضـوع العذل، فالشـاعر الذي ينتمـي إلـى طبقـة اجتماعيَّـة معينـة قد يعبِّر عن مشاعره بشكل مختلف عن شاعر من طبقة أخرى، أو العلاقة الأسريَّة التي تربط الشاعر بعاذلته، فعذل المحبوبة يختلف عن عذل الابنة، أو عذل الصديق.

وعرّف (علـي عبدالواحـد وافـي) علـم الاجتمـاع اللُّغـوي أو السوسـيولوجيَّة اللُّغويَّـة –كمـا أطلـق عليهـا هـذا المصـطلح– بأنَّهـا: "دراسـة العلاقـة بـين اللُّغـة والظـواهر الاجتماعيَّـة، وبيـان أثـر المجتمـع ونظمـه وتاريخـه وتركيبـه وبنيتـه فـي مختلف الظواهر اللُّغويَّة" (١)، وهو بذلك يؤكد على أهميَّة علم الاجتماع اللُّغوي كفرع من فروع علم الاجتماع في معالجة الظواهر اللُّغويَّة بطريقة تساعد على تفسـير الظـواهر اللُّغويَّـة عـن طريـق العلاقـة التـي تربطهـا بمختلـف الظـواهر الاجتماعيَّة. (٢)

والسوسيولوجيَّة اللُّغويَّة هي علم يسعى إلى "دراسة كيفيَّة اختلاف اللغات طبقًا للسياقات الاجتماعيَّة، ومدى فاعليَّة المواقف الاجتماعيَّة المختلفة في تعيين أشكال الكلام والسمات المميزة له، وفي ضوء هذا التعريف يهتم علم الاجتماع اللُّغـوي بالانتمـاءات الاجتماعيَّـة للمتكلم وعلاقتـه بمواقف الكـلام الرسميَّة وغير الرسـميَّة، وبـذلك يكـون للاختلافـات الاجتماعيَّـة مـن الناحيـة المهنيَّـة والتعليميَّـة والاقتصـاديَّة علاقـة بتوجيـه طريقـة النطـق والكـلام بصـوت معين، وعليـه يختلـف استخدام اللُّغة باختلاف الطبقة الاجتماعيَّة واتجاهاتها وأحكامها، فكلام جماعات اجتماعيَّـة واقتصـاديَّة معينـة لـه سماته الصـوتيَّة المميـزة والتـي تـدل علـى الفئـة الاجتماعيَّة التي ينتمي إليها الشخص المتكلم، وعليه فإن علم الاجتماع اللُّغوي

(١) علم اللُّغة، علي عبدالواحد وافي، نهضة مصر، القاهرة، ط:٩، (٢٠٠٤)، ص: ٥٩.

(٢) ينظـر: علـم الاجتمـاع اللُّغـوي، السـيد علـي شـتا، مؤسسـة شـباب الجامعـة، القـاهرة، (١٩٩٦)، ص: ٢٤.

يهتم بالتنوعات اللُّغويَّة المرتبطة بالمستوى المهني والعرقي وبالنمو اللُّغوي للطفل". (١)

فلا شك أن اختلاف الأفراد في المجتمع الواحد طبقًا لعامل السن، الطبقة، والجنس، ونوعيَّة العمل وغيرها، يؤدي إلى اختلاف خبراتهم، ومن ثم يؤثر ذلك على لغته وألفاظه، فتنتج الاختلافات في اللهجات واللغات داخل الجماعة البشريَّة. (٢)

والسوسيولوجيَّة اللُّغويَّة تأخُذ على عاتقها "الكشف عن العلاقات الاجتماعيَّة بين اللُّغة كإنتاج حضاري وبين المجتمع نفسه، وكذلك وظيفته في البحث عن الخوارق اللُّغويَّة بسبب الحواجز الجغرافيَّة وصعوبات التنقل التي تؤدي إلى عزل الجماعات بعضها عن بعض وإلى تباين لغوي". (٣)

وبذلك فهي علم يدرس العلاقات الاجتماعيَّة اللُّغويَّة تلك التي تعد نوعًا من النتاج الحضاري وبين أثرها على المجتمع نفسه، فهل هي تتطور بتطوره، وهل ترتبط بالذاكرة الجمعيَّة أم لا، وما أثر المجتمع بموقعه الجغرافي على هذه اللُّغة؟

ونجد أن هناك من يعدّها دراسة لعلاقة اللُّغة بمجتمعها اللُّغوي، ويقول آخرون بأنَّها علم يسعى الباحث عن طريقه إلى "دراسة اللُّغة في علاقتها بالمجتمع، وهو نوع جديد في الدراسات اللُّغويَّة، ويحتوي هذا الفرع على مجموعة كبيرة من المصطلحات تصنف العلاقات اللُّغويَّة داخل المجتمع الواحد". (٤)

---

(١) علم الاجتماع اللُّغوي، مرجع سابق، ص: ٢٤.

(٢) ينظر: الأنثروبولوجيا اللُّغويَّة، مها فوزي معاذ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (٢٠٠٩)، ص: ١٢٧.

(٣) اللسانيَّات الاجتماعيَّة، هادي نهر، دار الأمل، الأردن، (١٩٩٨)، ص: ٤٨.

(٤) الأنثروبولوجيا اللُّغويَّة ، مرجع سابق، ص: ١٢٢.

ولا شك في أن "العلاقات بين الظواهر اللُّغويَّة والظواهر الاجتماعيَّة، وتأثر اللُّغة بالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي في زمان ومكان معينين قائمة منذ أن وُجدت اللُّغة ووجدت الحياة الاجتماعيَّة، فجوهر الإنسان إنما يكمن في لغته وحساسيّته وحياته الاجتماعيَّة". (١)

ومن أهم الاكتشافات التي عرفها الإنسان عبر العصور هي اللُّغة، فقد نشأت باتفاق جمعي يعود إلى حاجات الفرد والمجتمع، وتعد اللُّغة عاملاً حيويًّا يؤثر في المجتمع، فتبقى مع بقائه وتزول مع زواله، وتشكل اللُّغة جزءًا لا يتجزأ من الحياة التي نشأت فيها وسارت معها وتغذت بغذائها، ونهضت بنهوضها، وركدت بركودها، "فاللُّغة وسيلة اجتماعيَّة، وأداة للتفاهم بين الأفراد والجماعات، فهي سلاح الفرد في مواجهة كثير من المواقف الحيويَّة، التي تتطلب الكلام أو الاستماع، أو الكتابة، أو القراءة، وهذه الفنون الأربعة أدوات هامة في اتمام عمليَّة التفاهم من جميع نواحيها، ولا شك أن هذه الوظيفة من أهم الوظائف الاجتماعيَّة للُغة". (٢)

والمجتمع حريص أشد الحرص على أن يجعل الفرد عضوًا فيه، وأن يصبغ هذا الفرد في فكره وفي سلوكه بصبغته، واللُّغة هي الأداة التي يستخدمها المجتمع لتحقيق هذا الهدف، وهي تعدّ من أهم وسائل الارتباط الروحي بين أفراد مجتمع معين، وقد تختلف مجموعات من الدول في البيئة، أو الجنس، أو الدين، أو في غير ذلك من الفوارق الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، ولكنها تظل متحدة متماسكة إذا كانت لغتها واحدة، وهي عامل مهم في حفظ التراث الثقافي والحضاري، ونقله من جيل إلى جيل، ويمكن استخدامها – اللُّغة – في تحقيق

(١) اللسانيَّات الاجتماعيَّة ، مرجع سابق، ص: ٩.

(٢) الموجّه الفني لمُدرّسي اللُّغة العربيَّة، عبدالعليم إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط: ١٤، (١٩٧٨)، ص: ٤٤.

فكـرة التقـارب والتفـاهم العـالمي؛ وذلـك بتبـادل الآداب المختلفـة، والدراسـات الاجتماعيَّة. (١)

المبحث الثاني: المكونات الاتصاليَّة في شعر العاذلة (المشاركون في الاتصال – الموقف – الصيغة – المقام التواصلي)

لطالما كانت اللُّغة من وجهة نظر فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) 1857–1913م، نظامًـا مـن العلامـات اللسـانيَّة، ويـرى انـدري مارتيني (Andre Martinet) 1908–1999م، إن اللُّغة هي أداة الاتصال وفق التجربة الإنسانيَّة التي يختلف استعمالها في كل مجتمع، فاللُّغة في كل صورها اجتماعيَّة تتولد عن الاحتكاك الاجتماعي، فهي مرتبطة بالحدث التواصلي في المجتمع، فلا لُغة من دون مجتمع ولا مجتمع من دون لُغة، وبذلك فإن وجود اللُّغة يشترط وجود مجتمع، وهنا يتضح الطابع الاجتماعي للُغة، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلاً عن جماعة إنسانيَّة تستخدمه وتتعامل به، فاللُّغة ليست هدفًا في ذاتها وإنما هي وسيلة للتواصل مع أفراد الجماعة الإنسانيَّة. (٢)

ويعبّر اللسان عن أعماق النفس الإنسانيَّة، وهو أداة للتواصل بين أفراد المجتمع، و"اللُّغة والكلام هما مكوِّنا اللسان، فاللسان العربي مثلاً؛ يعني فعل الإنسان العربي وقدرته عبر تاريخه الطويل على التواصل، إذ تتمثل تلك القدرة في مجموعة المبادئ والقواعد والقوانين والعلاقات التي تكمن في أذهان الناطقين بذلك اللسان، التي لا تتحوّل إلى وسيلة للتواصل إلا عندما يجسِّدها الكلام في

(١) ينظر: الموجّه الفني لمُدرّسي اللُّغة العربيَّة، مرجع سابق، ص: ٤٥.

(٢) ينظر: سوسيولوجيَّة اللُّغة لدى الجاحظ –البيان والتبيين أنموذجا–، أحمد مدني، مجلة الأكاديميَّة للدراسات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، الجزائر، ع١٨، (٢٠١٧)، ص: ٧٨؛ مدخل إلى علم اللُّغة، محمود فهمي حجازي، دار قباء، القاهرة، (د.ت) ص: ١٢.

خطاب – شفويًّا كان أم كتابيًّا – ومن هنا تبرز مكانة الخطاب" [١]، لأنَّه "أداة ذات أهميَّة في تكوين أفعال الجماعة وصناعة سلوكات في ممارساتهم الاجتماعيَّة، لكنها تظل في الوقت نفسه عبارة عن مجرّات متعددة لاستعمالات متفرّقة". [٢]

وهكذا فإن الخطاب هو كلام جسّد لُغة في علاقاتها، وعليه فغياب التواصل سيؤدي إلى انعدام السلوك الإنساني، ولكن ينبغي للُغة المستعملة أن تكون أداة تواصل تكشف الأفكار وتنقل المعارف بشكلٍ واضح وقابل للإدراك والوعي، حيث أثبتت التجربة أن اللُّغة ليست دائما شفّافة وواضحة، إنما قد تستخدم أداة إخفاء وتضمين، ولاسيما فيما يتعلَّق بما يمكن أن يحاسب عليه الإنسان في المواضع الحسَّاسة التي لا يجوز أن يتعامل معها بوضوح وشفافيَّة مثل: الأوهام المزيفة التي تعبِّر عن أصناف الخداع المستشري في الإعلان السياسي والاقتصادي والتقني؛ أي أن اللُّغة يمكن أن تكون أداة تصريح، أو أداة إخفاء في إطار وجود مجموعة من المحرَّمات المحيطة بالإنسان، وهي بشكل دائم تفرض نفسها على متحدِّثها؛ إذ تمتلك مجموعة من القواعد النحويَّة والصرفيَّة والبلاغيَّة عن طريق منظومتها الاجتماعيَّة التي تنتمي إليها؛ لأن العلاقة بين الجماعة واللُّغة علاقة ثنائيَّة الاتجاه، فلُغة الجماعة تفرض نفسها عليها، مهما ضعفت صلتها بتلك اللُّغة. [٣]

(١) نظريَّة التواصل المفهوم والمصطلح، أسامة العكش، رضوان القضماني، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلميَّة، سوريا، مج٢٩، ع١، (٢٠٠٧) ص: ١٤١.

(٢) النظريَّة النقديَّة التواصليَّة، حسن مصدق، المركز الثقافي العربي، المغرب، (٢٠٠٥)، ص: ٧٩.

(٣) ينظر: ثلاثية اللسانيَّات التواصليَّة، سمير استيتية، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج٣٤، (٢٠٠٦)، ص: ١٠. نظريَّة التواصل المفهوم والمصطلح، مرجع سابق، ص: ١٤١.

إن الوظيفة التواصليَّة لم تتخذ موقعها من البحث اللُّغوي إلا عندما فرَّق فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) 1857–1913م، بين اللُّغة والكلام في إطار الأساس المنهجي لعلم اللُّغة الحديث، إذ قال أن اللُّغة والكلام يعتمد أحدهما على الآخر، مع أن اللُّغة هي أداة الكلام وحصيلته، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميزين تماما. (١)

فاللُّغة بحسب فهمه نسق سابق في وجوده استخدام الكلمات والممارسات العمليَّة التي هي تلفُّظ فرديٌّ أو كلام؛ أي هي "القوانين والأنظمة العامة التي تحكم إنتاج الكلام، دون أن توجد جميعا إلا بوصفها بنى مكتوبة في كتب اللُّغة، إنَّها السلطة التجريديَّة المشاعة التي يستمد الكلام منها اختياراته الفعليَّة، أما الكلام فهو التطبيق الفعلي لهذه القوانين والقواعد" (٢)، فأصبح أي حديث عن اللُّغة من دون الاهتمام بالموقف التواصلي لا معنى له؛ وبالتالي أصبحت الوظيفة التواصليَّة إطارًا عامًا تتحرك ضمنه بقيَّة وظائف اللُّغة.

وقد تطورت عمليَّة التواصل على يد العالم اللُّغوي رومان جاكبسون (Roman Jakobson) 1896–1982م، الذي حدد عناصر التواصل اللُّغوي الستّة، وهي على التوالي: (٣)

(١) ينظر: دروس في الألسنيَّة العامة، دي سوسير، ترجمة: صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، الدار العربيَّة للكتاب، ليبيا، (١٩٨٥)، ص: ٤١.

(٢) معرفة الآخر، سعيد الغانمي وعبدالله إبراهيم وعواد علي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط:٢، (١٩٩٦)، ص: ٤٤.

(٣) ينظر: قضايا الشعريَّة، رومان جاكبسون، ترجمة: مبارك حنون ومحمد الولي، دار توبقال، المغرب، ط:١، (١٩٨٨)، ص: ٢٧.

١ – المرسِل:

هو مصدر الخطاب المقدّم، وهو الباعث الأول على انشاء خطاب يوجّه إلى المرسَل إليه في شكل رسالة. (١)

٢ – المرسَل إليه:

هو الطرف الآخر في عمليَّة التواصل، ويقوم بعمليَّة التفكيك لكل أجزاء الرسالة، ويجب التمييز بين صنفين من مستقبلي الرسالة الكلاميَّة وهما: المرسَل إليه مباشرة، والمرسَل إليه غير المباشر. (٢)

٣ – الرسالة:

هي وحدة الإشارات المتعلقة بقواعد تركيبات محدودة يبعثها جهاز البث (الإرسال) إلى جهاز الاستقبال عن طريق قناة حيث تستعمل بوصفها وسيلة ماديَّة للاتصال، وهي الجانب الملموس في العمليَّة التخاطبيَّة، حيث تتجسّد عندها أفكار المرسل في صور سمعيَّة في الخطاب الشفوي، أو علامات خطيَّة في الرسالة المكتوبة. (٣)

ويكمن الفرق بين رسالة وأخرى في مدى إظهار قوة حضور كل وظيفة من الوظائف الستّ (وظائف التواصل اللُّغوي)، وحسب نِيَّة التواصل، وأهدافه، والظّروف المحيطة في إنجاح عمليَّة التواصل، أو إفشالها. (٤)

(١) ينظر: التواصل اللساني والشعريَّة، الطاهر بومزبر، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط:١، (٢٠٠٧)، ص: ٢٤.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٢٥.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ص: ٢٧.

(٤) ينظر: نظريَّة التواصل المفهوم والمصطلح، مرجع سابق، ص: ١٤٢.

٤ – السنن:

هو النظام الرمزي أو القواعد المشتركة لجميع أنساق التواصل بين المرسِل والمرسَل إليه. (١)

٥ – السياق:

هو المرجع الذي تحيل إليه الرسالة، فلكل رسالة مرجع تحيل عليه، وسياق معين مضبوط قيلت فيه، ولا تفهم مكوناتها الجزئيَّة، أو تفكك رموزها السننيَّة إلاّ بالإحالة على الملابسات التي أنجزت فيها هذه الرسالة قصد إدراك القيمة الإخباريَّة للخطاب. (٢)

والسّياق إما أن يكون لفظيًّا، أو قابلا لأن يكون كذلك، والسياق غير اللفظي هو الذي يمثل المحيط الذي تولد فيه الرسالة، وتتشكل أبنية خطابها اللفظي، ويتضمن السّياق من هذه الزاوية العناصر التالية: (٣)

- **الموقع:** أو الإطار الزمكاني؛ إذ يجب أن يكون الخطاب المعطى مطابقا لحيز مكاني ولحظة زمانيَّة.
- **الهدف:** يجب التمييز بين الهدف العام للتداخلات الكلاميَّة كما هو أثناء زيارة طبيب، والهدف الأكثر دقة وتحديدا لمواقف للأفعال الكلاميَّة المتباينة المنجزة أثناء اللقاء، فأهداف التواصل هي الغاية القصوى من العمليَّة التواصليَّة.
- **المشاركون في العمليَّة التواصليَّة:** من حيث عددهم سواء كانت محادثة وجهًا لوجه، أو بين ثلاثة أشخاص أو أكثر، ومميزاتهم الشخصيَّة مثل

(١) ينظر: نظريَّة التواصل المفهوم والمصطلح، مرجع سابق، ص: ٢٨.

(٢) ينظر: المرجع سابق، ص: ٣٠.

(٣) ينظر: المرجع نفسه.

العمر، والجنس، والمهنة، وغيرها، وعلاقاتهم المتبادلة من حيث درجة معرفتهم –المتخاطبين– وطبيعة علاقاتهم الاجتماعيَّة والعاطفيَّة.

٦– القناة:

هي الممر الفيزيولوجي بين المرسِل والمرسَل إليه، الذي يسمح بانتقال الرسالة، سواء عبر النطق أو الكتابة، ومن مهامها إقامة الاتصال والحفاظ عليه. (١)

إن النموذج التواصلي عند (رومان جاكبسون Roman Jakobson)، مبني على أساس نظام التواصل القائم على المرسِل المنجز للكلام، والمرسَل إليه مستقبل الرسالة، والرسالة ذاتها تحتاج إلى سياق، وسننٍ مشتركة كليًّا أو جزئيًّا بين المرسِل والمرسَل إليه، وقناة اتصال تسمح بإقامة التواصل والحفاظ عليه. (٢)

وكل عنصر من العناصر السابقة يولّد وظيفة في الخطاب تتميّز نوعيًّا عن وظائف العناصر الأخرى، وتكون عمليَّة التخاطب اللساني تأليفًا لجملة هذه الوظائف، حيث تبرز إحداها بشكل خاص؛ فتكون بنية الكلام مصطبغة بسمات الوظيفة السائدة (٣)، وهي على التوالي: (٤)

١– الوظيفة التعبيريَّة:

تتمحور هذه الوظيفة حول المرسِل، وتسمّى أيضا "الوظيفة الانفعاليَّة، وهي مركَّزة على نقطة الإرسال فهي إذن وظيفة تنزع إلى التعبير عن عواطف المرسِل

(١) ينظر: المرجع نفسه، ص: ٣٣.

(٢) ينظر: قضايا الشعريَّة، مرجع سابق، ص: ٢٧.

(٣) ينظر: الأسلوبيَّة والأسلوب، عبدالسلام المسدي، الدار العربيَّة للكتاب، ليبيا، ط:٣، (د.ت)، ص: ١٥٨

(٤) ينظر: قضايا الشعريَّة، مرجع سابق، ص: ٢٨.

ومواقفه إزاء الموضوع الذي يعبّر عنه ويتجلّى ذلك في طريقة النطق مثلا أو في أدوات لغويَّة تفيد الانفعال كالتأوه أو التعجب أو صيحات الاستنفار". (١)

٢- الوظيفة الإفهاميَّة:

ترتبط هذه الوظيفة بالمرسَل إليه، وأطلق عليها بعض اللسانيين مصطلح "وظيفة تأثيريَّة، وهو اصطلاح مهم يمكن استثماره إلى جانب الإفهاميَّة، ذلك أن الأول نظر إليها من وجهة نظر عقليَّة، بينما المصطلح الثاني يحمل المدلول العاطفي للوظيفة". (٢)

ونجد هذه الوظيفة "الأكثر خلوصا في النداء والأمر اللذين ينحرفان، من وجهة نظر تركيبيَّة وصرفيَّة وحتى فونولوجيَّة في الغالب، عن المقولات الاسميَّة والفعليَّة الأخرى. وتختلف جُمل الأمر عن الجُمل الخبريَّة في نقطة أساسيَّة: فالجُمل الخبريَّة يمكنها أن تخضع لاختبار الصدق ولا يمكن لجُمل الأمر أن تخضع لذلك". (٣)

ومصطلح (الإفهاميَّة) يفيد أن المقصود من هذه الوظيفة إفهام المتلقي وتحصيله المعاني التي يقصدها المتكلم، وأما مصطلح (التأثيريَّة) فيشير إلى عمليَّة التلقي على وجه الانفعال والتأثير السلوكي أو النفسي بالعمليَّة التواصليَّة (الخطابيَّة)، والسمة التي تطبع هذه الوظيفة هي المعلومة الجديدة التي تتضمنها الرسالة، وهي إما أن تكون طلبًا على سبيل حصول الفعل وهو الأمر، وإما طلبًا على سبيل ترك الفعل وهو النهي. (٤)

---

(١) الأسلوبيَّة والأسلوب، مرجع سابق، ص: ١٥٨.

(٢) التواصل اللساني والشعريَّة، مرجع سابق، ص: ٣٩.

(٣) قضايا الشعريَّة، مرجع سابق، ص: ٢٩.

(٤) ينظر: نظريَّة التواصل وأبعادها في الدرس اللُّغوي العربي، دلدار غفور، مجلة زانكو للعلوم الإنسانية، العراق، مج١٨، ع١، (٢٠١٤)، ص: ١٢٢.

٣- الوظيفة الشعريَّة:

هي الوظيفة التي ترتبط بالرسالة، و"تكون فيها الرسالة غاية في حد ذاتها لا تعبّر إلا عن نفسها فتصبح هي المعنيَّة بالدرس" [١]، وهذا ما أكّده (جاكبسون Jakobson) في قوله: "استهداف الرسالة بوصفها رسالة والتركيز على الرسالة لحسابها الخاص هو ما يطبع الوظيفة الشعريَّة للُغة" [٢]، ولا يمكن اختزال هذه الوظيفة في دراسة الشعر، بل هي حاضرة في جميع الأجناس الأدبيَّة "ليست الوظيفة الشعريَّة هي الوظيفة الوحيدة لفن اللُّغة، بل هي فقط وظيفته المهيمنة والمحددة، مع أنَّها لا تلعب في الأنشطة اللفظيَّة الأخرى سوى دور تكميلي وعرضي". [٣]

٤- وظيفة اللُّغة الواصفة:

لقد جرى التمييز بين مستويين للُغة في المنطق المعاصر؛ هما: اللُّغة، والموضوع؛ أي اللُّغة المتحدِّثة عن الأشياء، واللُّغة الواصفة؛ أي اللُّغة المتحدِّثة عن نفسها، إلا أن هذه اللُّغة الواصفة ليست فقط أداة عمليَّة ضروريَّة في خدمة المناطقة واللسانيين فحسب؛ فهي تؤدي دورًا مهمًا في اللُّغة اليوميَّة أيضًا، فعندما يتحدّث شخصان أرادا التأكد من الاستعمال الجيد للرامزة نفسها؛ فإن الخطاب سيكون مركزًا بشكلٍ أساسي على الرامزة، وبذلك يشغل وظيفة الشرح. [٤]

وأهم ما يميّزها ارتباطها بالسنن، وتملك هذه الوظيفة "كفاية تفسيريَّة قادرة على وصف اللُّغة نفسها أي أنَّها لُغة مفسرة وواصفة للُغة ذاتها، لأنَّها تملك جهازا مفاهيميا قادرا على وصف وتفسير كل الأشكال التواصليَّة اللفظيَّة وغير اللفظيَّة،

(١) الأسلوبيَّة والأسلوب ، مرجع سابق، ص: ١٦٠.
(٢) قضايا الشعريَّة، مرجع سابق، ص: ٣١.
(٣) قضايا الشعريَّة، مرجع سابق، ص:٣١.
(٤) ينظر: المرجع السابق.

وبعبارة أوضح هي لُغة علميَّة ودقيقة تضطلع بمهمة شرح وتحليل كل الظواهر العلميَّة". (١)

٥- الوظيفة المرجعيَّة:

ترتبط الوظيفة المرجعيَّة بالسّياق، وهي الوظيفة "المؤدية للإخبار باعتبار أن اللُّغة فيها تُحيلنا على أشياء وموجودات نتحدّث عنها، وتقوم اللُّغة بوظيفة الرمز إلى تلك الموجودات والأحداث المبلُغة" (٢)، وتوظّف هذه الوظيفة العلاقة القائمة بين العلامات وما تحيل عليه في العالم الخارجي الذي يجسّده المرجع أو سياق التخاطب، ويمكن أن نسمّيها بوظيفة التسمية؛ لأنَّها وظيفة إخباريَّة وإبلاغيَّة وجوابيَّة عن سؤال جوهري هو: ما الغرض من التواصل؟ وما الهدف من استعمال هذه الوظيفة؟ ولأنَّها وظيفة تسمّي الأشياء بمسمياتها؛ لأن ما يهمها هو تزويد المتلقي بمعلومات صحيحة. (٣)

وتتوجه هذه الوظيفة نحو المرجع المشترك بين طرفي التواصل الأساسيين؛ أي ما هو مشترك ومتفق عليه من قبل المرسِل والمرسَل إليه، وهو المبرِّر لعمليَّة التواصل؛ ذلك لأننا نتكلَّم بهدف الإشارة إلى محتوى معين نرغب بإيصاله إلى الآخرين وتبادل الآراء معهم حوله، وتتعدد أنواع المرجعيّات حسب الخطاب الأدبي الذي يحيل إليها، فقد تكون مرجعيات اجتماعيَّة وفلسفيَّة، ورصائد ثقافيَّة وطبيعيَّة، وعلاقات ذاتيَّة وموضوعيَّة، وبنيات عميقة وسطحيَّة. (٤)

(١) نظريَّة التواصل في ضوء اللسانيَّات الحديثة، محند الركيك، مجلة علامات، المغرب، ع٢٤، (٢٠٠٥)، ص: ٧٢.

(٢) الأسلوبيَّة والأسلوب، مرجع سابق، ص: ١٥٩.

(٣) ينظر: نظريَّة التواصل في ضوء اللسانيَّات الحديثة، مرجع سابق، ص: ٧٠.

(٤) ينظر: نظريَّة التواصل المفهوم والمصطلح، مرجع سابق، ص: ١٤٤.

٦- الوظيفة الانتباهيَّة:

هي وظيفة لغويَّة تتمحور حول القناة، وتهدف إلى "إقامة الاتصال بين المتحاورين، أو إيقافه؛ مستعملة لهذا الغرض، تعابير وأساليب متداولة في الحياة اليوميَّة ومشتركة بين أفراد المجتمع، وهي عادة ما تتكون من كلمات ومفردات قبلية وجاهزة، لها وظائف تواصليَّة معروفة من قبيل: عبارات المجاملة والمسامرة والأدب والتحيَّة والأسئلة عن الأحوال الشخصيَّة وأحوال الطقس". (١)

وبما أن اللُّغة تعبِّر عن اتصال لساني بين مجموعة من الاطراف في ظل موقف معين كان لابد من الوقوف على أطراف العلاقة الاتصاليَّة في شعر العاذلة.

يقول عروة بن الورد:

سَلي الطارِقَ المُعتَرَّ يا أُمَّ مالِكٍ إذا ما أَتاني بَينَ قَدري وَمَجزِري

أَيُسفِرُ وَجهي إِنَّهُ أَوَّلُ القِرى وَأَبذُلُ مَعروفي لَهُ دونَ مُنكَري (٢)

يوجّه الشاعر خطابه إلى أم مالك ليقوم موقف العذل على أساس إثبات صفات الكرم والجود عند الشاعر، وهو عن طريق هذا النص لا يوجّه خطابه إلى أم مالك فحسب، بل يوجّه رسالة عن طريق خطابها إلى كل من يسمعه، فالشاعر كريم ولكنه يترك الإجابة عن حالة كرمه إلى ذلك المعتر الذي يطرق بابه، فيترك له التعبير عن مدى اغتباط وجهه أو تكدره عند قدومه.

المشاركون في الاتصال

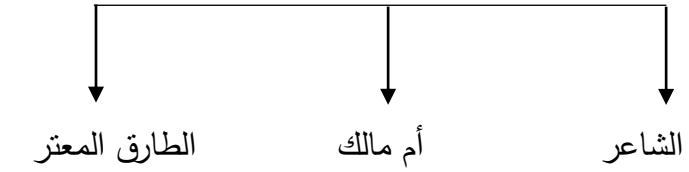

(١) نظريَّة التواصل في ضوء اللسانيَّات الحديثة، مرجع سابق، ص: ٧١.

(٢) الديوان، ص: ٧٨.

والحالة، أو الموقف هو إجابة أم مالك في عذلها الشاعر ولومها له، ومحاولة إثبات ذاته عن طريق الفخر بكرمه، وفتح المجال أمام طرف آخر للإجابة عن هذه المعادلة، فالأسلوب هنا أو الصيغة قائمة على الاستفهام.

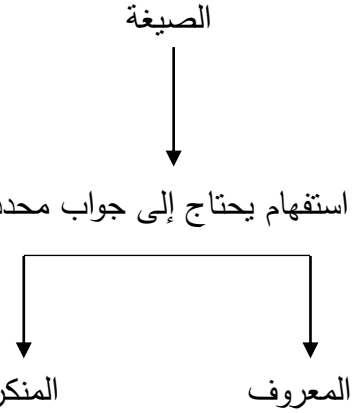

وقد اعتمد الشاعر على أسلوب الخطاب القائم على أساس الاستعانة بدليل واقعي لدفع لوم العاذلة (أم مالك) وإثبات كرمه وتقديمه المعروف إلى أهله.

ويقول الشاعر:

تَقولُ أَلا أَقصِر مِنَ الغَزوِ وَاِشتَكى لَها القَولَ طَرفٌ أَحوَرُ العَينِ دامِعُ
سَأُغنيكِ عَن رَجعِ المَلامِ بِمُزمَعٍ مِنَ الأَمرِ لا يَعشو عَلَيهِ المُطاوِعُ
لَبوسٌ ثِيابَ المَوتِ حَتّى إِلى الَّذي يُوائِمُ إِمّا سائِمٌ أَو مُصارِعُ (١)

العذل هنا قائم على الطلب، وذلك للكف عن القيام بالغزو الذي اعتاد عليه الشاعر، ونجد أن الشاعر كان يركز على البنية الشكليَّة للعاذلة عن طريق وصف طرفها الأحور الدامع؛ وكأنَّها تلومه معبِّرة عن حزنها لما يعتريه، وربما يحاول الشاعر عن طريق ذلك التعبير عن حالة حزن ولوعة، فليست العاذلة هنا سوى نفسه التي تلومه وتؤرقه.

(١) الديوان، ص: ٨٢.

أطراف العلاقة الاتصاليَّة

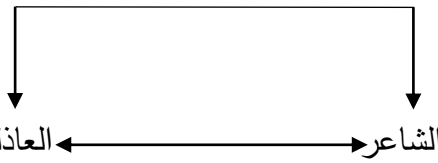

أما الصيغة التي اعتمد عليها فهي صيغة (الأمر) المراد منه طلب الكف عن فعل القيام بالغزوات، وهنا نلمح في هذا النص أن الشاعر قد تعب من كثرة الحل والترحال والتنقل والغزو ففي البيت زفرة طويلة، وتعبير عن الهم حتى تكاد تكون العاذلة صورة من نفس الشاعر وتعبيرا عن مخاوفه ومتاعبه.

يقول عبيد بن أيوب:

تقول وقد ألممت بالإنس لّمة مخضبّة الأطراف خرس الخلاخل

أهذا خليل الغول والذّئب والّذي يهيم بربّات الحجال الهراكل؟

رأت خلق الأدراس أشعث شاحبا على الجدب بسّاما كريم الشّمائل (١)

إن أطراف العلاقة الاتصاليَّة في هذا النص محددون بالشاعر والعاذلة، وتظهر العاذلة في هذا النص على طرف نقيض من حالة الشاعر، فهي ذات أنس، مخضبة الأطراف، ذات خلاخل إذا هي تبدو امرأة ميسورة الحال ذات جمال ودلال، أما الشاعر فهو أشعث الشعر رثّ السياب، وموقف العذل قائم على السخرية والتساؤل؛ أهذا خليل الغول؟

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ج٢، (٢٠٠٢)، ص: ٧٧٢.

ونستطيع أن نفصّل نمط العلاقة الاتصاليَّة عن طريق التوضيح:

المشاركون في الاتصال

الموقف

موقف أنس محدد بزمان (وقد ألممت بالأنس لمة)

الصيغة

سخرية وعذل معبّر عنه بأسلوب الاستفهام

ونستطيع أن نحدد المقام التواصلي في هذا النص بالصراع بين الشاعر وذاته، وهذا الصراع يحدده طرفا العلاقة (العاذلة – الشاعر) وهو محدد بالمفارقة، فالعاذلة حسناء، مخضبة الأطراف رقيقة، ناعمة، يبدو على ملامحها الدلال والراحة بعكس الشاعر.

ويأتي سؤال العاذلة (أهذا خليل الغول والذئب؟) في مقام الاستنكار! فهي تستنكر هيئته التي هو عليها، فهو أشعث الشَّعْرِ، رثُّ الثياب، ولكنه في موقف الوصف هذا – موقف مقامه من مقام العاذلة – نجده يحكي خصاله الكريمة (بسام – كريم الشمائل).

إن اللُّغة التواصليَّة في هذا النص تكشف لنا عن الصراع الذي يعيشه الشاعر الصعلوك بين العاذلة (نظرة المجتمع) وبين واقعه الحياتي.

وقد تكون العاذلة أيضا صورة يرسمها الشاعر للحياة الرغيدة، أو حلما يتمنى أن يعيشه، فيعكس عن طريق هذه اللُّغة؛ الفرق بين واقعه وواقع مجتمعه، وصورة تعبه الجسدي الذي لا يمنعه من أن يكون ذا خصال كريمة.

يقول عبيد الله الجعفي:

أَلَم تَعلَمي يا أُمَّ تَوبَةَ أَنَّني أَنا الفارِسُ الحامي حَقائِقَ مَذحَجِ

وَأَنّي صَبَحتُ السِّجنَ في رَونَقِ الضُّحى بِكُلِّ فَتىً حامي الذِّمارِ مُدَجَّجِ

فَما إِن بَرَحنا السِّجنَ حَتّى بَدا لَنا جَبينٌ كَقَرنِ الشَّمسِ غَيرُ مُشَنَّجِ (١)

إن الاتصال في هذا النص قائم على أساس العذل الضمني، فالعذل مسكوت عنه من طرف العاذلة ولكنه مطروح من قبل الشاعر يدل عليه الاستفهام، حيث نجد الشاعر يحاول الدفاع عن نفسه محاورا العاذلة مقدما لها الحجج اللازمة، فهو الفارس، وحامي الحقائق، وهو الذي يملك القدرة على الأسر، فالشاعر في هذا النص يجيب العاذلة عن طريق استعراض بطولاته، وأطراف العلاقة الاتصاليَّة في هذا النص تتحدد عن طريق:

أطراف العلاقة الاتصاليَّة

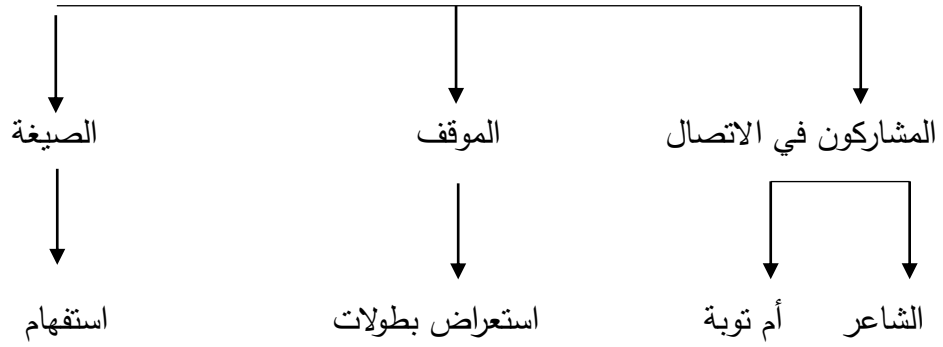

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون البغدادي، تحقيق: محمد زهران، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠٨)، ص: ٢٤٦.

فالشاعر يحاول الدفاع عن نفسه عن طريق مواجهة العذل المضمر بالاستفهام الاستنكاري، فتتحدد بنية التواصل في النص عن طريق ما يفرضه الشاعر على الموقف من إثبات الذات؛ وذلك عن طريق توظيف الضمائر الدالة على الذات (أنا – أني)، والتأكيد على البطولة.

يقول أبو النشناش النهشلي:

وسَائِلَةٍ أينَ الرَّحِيلُ وسَائِلٍ ومِنْ يَسْأَلُ الصُّعْلُوكَ أينَ مَذاهِبُهْ

وَدَاوِيَةٍ يَهْمَاءَ يُخشَى بهَا الرَّدَى سَرَتْ بِأَبِي النَّشْنَاشِ فِيها رَكَائِبُهْ

لِيُدْرِكَ ثَأْرًا أَوْ لِيُدْرِكَ مَغْنَمًا جَزِيلاً وهذَا الدَّهْرُ جَمٌّ عَجَائِبُهْ

إذَا الْمَرْءُ لم يَسْرَحْ سَوَامًا وَلَمْ يُرِحْ سَوَامًا ولَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهْ (١)

إن النص هنا يحمل علاقة اتصاليَّة بين أطراف متعددة مبهمة، فالشاعر يختصر الحديث في هذا النص عن طريق استعراض العاذلين في البداية (وسائلة – وسائل) والسؤال محدد بعبارة (أين الرحيل)، وهو يجيب هؤلاء المتسائلين عن طريق الاستنكار أيضا، فيا ترى من يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟

المشاركون في الاتصال

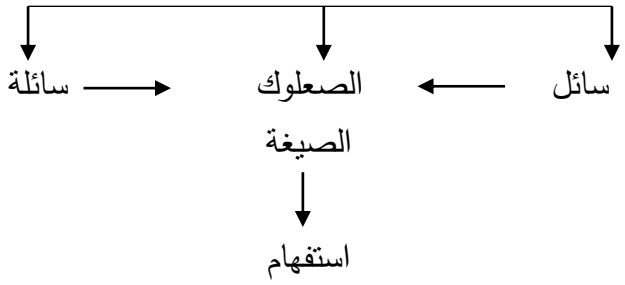

أما الموقف فهو يعرب عن كثير من مشاعر الألم التي يمر بها الصعلوك فينقل إلينا جانبا من جوانب حياته البائسة، وهي إدراك الثأر والغنم، وكأن الحياة

(١) الأصمعيات، الأصمعي، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط:٧، (١٩٩٣)، ص: ١١٨.

ما هي إلا بحث دائم عن الثأر ، فالصعلوك يثأر لنفسه من الظرف الاجتماعي المضني ومن الحياة البائسة التي يعيشها.

تعددت أطراف الموقف الاتصالي في هذا النص، فجاء منكرا هويَّة العاذلة عن طريق التنكير وعدم التعريف بالسائلين، ولكنه جاء منوعًا في الفئات التي تلومه، فالعذل لا يقتصر على الأنثى في هذا البيت، بل هو عذل من قبل الذكر والأنثى.

يقول مالك بن الريب:

وقد تقولُ وما تخفي لجارِتها أنّي أرى مالكَ بن الريب نَحَلا
مَن يَشهَد الحَربَ يَصْلاها ويُسعِرُها تراهُ مما كَسَتْه شاحِباً وجِلاَ
خذها فإني لضرَّاب إذا اختلفت أيدي الرجال بضرب يختِلُ البطَلا (١)

إن العذل في هذا النص جاء على لسان المرأة وهي تعبِّر لجارتها عما رأته من نحول مالك بن الريب، والشاعر هنا يجيب العاذلة، ويخبرها عن سبب نحوله وضعفه، فمن يشهد الحرب سيتعرض للنحول والتعب.

المشاركون في الاتصال

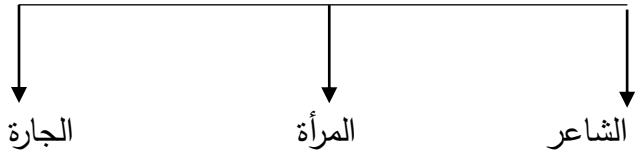

والصيغة هنا قائمة على المحاورة بين المرأة وجارتها حول شحوب مالك ونحوله، والموقف هو دفع اللوم فالشاعر ممن يشهد الحروب والمعارك؛ ومن يشهد المعارك سيتعرض للنحول، وهذا النحول يكون هنا دليل.

(١) الأغاني، الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ج٢٢، (١٩٩٥)، ص: ٢٩٤.

الخاتمة:

تناولت الدراسة شعر العاذلة حتى نهاية العصر الأموي (دراسة سوسيولوجيَّة لغويَّة)، وخلُصت الدراسة إلى عدة نتائج، ومن أبرزها:

- استجابة شعر العاذلة لمعطيات النظريَّة السوسيولوجيَّة للُغة، مما يؤكد على العلاقة الوطيدة بين اللُّغة والمجتمع.
- الوظيفة التواصليَّة هي الإطار العام الذي تتحرك ضمنه بقيَّة وظائف اللُّغة، فأصبح أي حديث عن اللُّغة من دون الاهتمام بالموقف التواصلي لا معنى له.
- كل وظيفة لغويَّة ترتبط بعنصر من عناصر التواصل اللُّغوي، فالوظيفة التعبيريَّة ترتبط بالمرسِل، والوظيفة الإفهاميَّة بالمرسَل إليه، والوظيفة الشعريَّة بالرسالة، ووظيفة اللُّغة الواصفة بالسنن، والوظيفة المرجعيَّة بالسياق، والوظيفة الانتباهيَّة بالقناة.
- تعددت أطراف العلاقة الاتصاليَّة في شعر العاذلة، ولم تقتصر على الشاعر والعاذلة وحدهما.

المصادر والمراجع

١- ابن عباد، الصاحب، المحيط في اللُّغة، تحقيق: محمد آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ج١، (١٩٩٤).

٢- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ج٢، (٢٠٠٢).

٣- ابن ميمون، محمد بن المبارك البغدادي، منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق: محمد زهران، دار الكتب العلميَّة، بيروت، (٢٠٠٨).

٤- أبو زيد، علي، ظاهرة العذل في شعر حاتم الطائي، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيَّة، دمشق، مج١٨، ع١، (٢٠٠٢).

٥- أبو الفرج، الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ج٢٢، (١٩٩٥).

٦- إبراهيم، عبدالعليم، الموجّه الفني لمُدرّسي اللُّغة العربيَّة، دار المعارف، القاهرة، ط: ١٤، (١٩٧٨).

٧- إبراهيم، عبدالله، وعلي، عواد، والغانمي، سعيد، معرفة الآخر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط:٢، (١٩٩٦).

٨- استيتية، سمير، ثلاثية اللسانيَّات التواصليَّة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج٣٤، (٢٠٠٦).

٩- الأصمعي، عبدالملك بن قريب، الأصمعيَّات، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط:٧، (١٩٩٣).

١٠-بومزبر، الطاهر، التواصل اللساني والشعريَّة، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط:١، (٢٠٠٧).

١١-جاكبسون، رومان، قضايا الشعريَّة، ترجمة: مبارك حنون ومحمد الولي، دار توبقال، المغرب، ط:١، (١٩٨٨).

١٢-حجازي، محمود فهمي، مدخل إلى علم اللُّغة، دار قباء، القاهرة، (د.ت).

١٣–دي سوسير، فردينان، دروس في الألسنيَّة العامة، ترجمة: صالح القرمادي ومحمد الشاويش ومحمد عجينة، الدار العربيَّة للكتاب، ليبيا، (١٩٨٥).
١٤–الركيك، محند، نظريَّة التواصل في ضوء اللسانيَّات الحديثة، مجلة علامات، المغرب، ع٢٤، (٢٠٠٥).
١٥–الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبدالفتاح الحلو، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ج٢٩، (١٩٩٧).
١٦–السنجلاوي، إبراهيم، العاذلة في الشعر الجاهلي، المجلة العربيَّة للعلوم الإنسانيَّة، الكويت، مج٧، ع٢٨، (١٩٨٧).
١٧–شتا، السيد علي، علم الاجتماع اللُّغوي، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، (١٩٩٦).
١٨–العبسي، عروة بن الورد، ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، تحقيق: أسماء أبو بكر بن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٨).
١٩–العكش، أسامة، والقضماني، رضوان، نظريَّة التواصل المفهوم والمصطلح، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلميَّة، سوريا، مج٢٩، ع١، (٢٠٠٧).
٢٠–علي، رعد أحمد، ظاهرة العذل في الشعر الجاهلي، مجلة كلية التربية الأساسيَّة، العراق، ع٧٥، (٢٠١٢).
٢١–غفور، دلدار، نظريَّة التواصل وأبعادها في الدرس اللُّغوي العربي، مجلة زانكو للعلوم الإنسانيَّة، العراق، مج١٨، ع١، (٢٠١٤).
٢٢–مدني، أحمد، سوسيولوجيَّة اللُّغة لدى الجاحظ –البيان والتبيين أنموذجا–، مجلة الأكاديميَّة للدراسات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، الجزائر، ع١٨، (٢٠١٧).

٢٣-المسدي، عبدالسلام، الأسلوبيَّة والأسلوب، الدار العربيَّة للكتاب، ليبيا، ط:٣، (د.ت).
٢٤-مصدق، حسن، النظريَّة النقديَّة التواصليَّة، المركز الثقافي العربي، المغرب، (٢٠٠٥).
٢٥-معاذ، مها فوزي، الأنثروبولوجيا اللُّغويَّة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (٢٠٠٩).
٢٦-نهر، هادي، اللسانيَّات الاجتماعيَّة، دار الأمل، الأردن، (١٩٩٨).
٢٧-وافي، علي عبدالواحد، علم اللُّغة، نهضة مصر، القاهرة، ط:٩، (٢٠٠٤).